الفصل السادس

الأدب المهجرى أدب رسالة

١ — توطئة

الأدب المهجرى أدب رسالة ؛ وهل الأدب الصحيح سوى رسالة سامية تنير سبل الحياة ، وتعرّف الناس كيف يهتدون إلى منابع السعادة والمعرفة فيها ، وكيف ينهلون من ذلك المنبع الأزلى الأبدى ، الذى لا يحده الزمان ولا المكان لأنه أصل الزمان والمكان ، وأصل الحياة والوجود ، بكل ما فيهما من شمول وأبدية ؟

وأدباء المهجر أدباء رسالة ؛ وهل الأديب الحق سوى رسول ، يحمل بيده مشعل الحب والحرية ، ويبحث بكل ما فى ضميره من شوق وشغف ، وما فى نفسه من نشاط وإخلاص ، عن مصدر السعادة والمعرفة فى الحياة ، ليهدى إليهما نفوس البشر الحائرة ، فيزيل عن وجه الحياة قشور الكآبة والجفاف ، ويكلله بنور الغبطة والانتعاش ؟

كانت المقاييس الكبرى للأدب هى أن يكون تعبيراً عن عاطفة ، مهما يكن نوعها ، أو تصويراً للنفس أو للمجتمع ، فى حدود ضيقة أو واسعة . لذلك كنا دائماً نعتبر الشعر والنثر هما الجناحين اللذين يتألف منهما « الأدب » . ونحن طبعاً نعتبر كل كلام منظوم « شعراً » ، وكل كلام غير ذى وزن وقافية « نثراً » ، مهما تكن صفات هذا النثر وذاك الشعر . وعلى هذا القياس تكون خمريات الأخطل وأبى نواس ، وغراميات امرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة ، ومدائح المتنبى والبحترى ، وأهاجى جرير والحُطيئة ، ومقامات الحريرى واليازجى ، أدباً ، وأدباً فى الصميم ، تماماً كتأملات المعرى وجبران ، ونعيمه ، وأبى ماضى : تلك التأملات الإنسانية التى تنزل على القلوب برداً وسلاماً ، وترفع النفوس معها ،

بعد أن تجرّدها من أوضار الطين ، وعبودية المادّة ، وتحلّق بها فى عوالم يغمرها النور ، وتتألق فى حواشيها ابتسامات التعزية والسعادة .

أما نحن ، أبناء الجيل الحاضر ، فإننا ننظر إلى الأدب نظرة فيها علوّ ، وعمق ، وسعة ؛ وفيها تقديس ومهابة : فليس المدح عندنا أدباً ، لأنه استجداء صريح ، أو وسيلة إلى الاستجداء فى الغالب ، والاستجداء عندنا ذل ورذيلة ؛ وليس التبذل فى الحب والشراب عندنا أدباً ، لأنه دعوة صارخة إلى سيادة الرذيلة ؛ وليس الفخر والحماسة عندنا أدباً ، لأنهما غرور وكبرياء ، والغرور والكبرياء عندنا من أمهات الرذائل ، ولا سيما أنهما يصدران عن ابن الطين ! ومتى كان للطين أن يغتر ويتكبر وهو لا يغتر ويتكبر إلا على طين مثله ؟

وهكذا نحن اليوم نفهم أن الأدب رسالة تعلم الحياة ، وترشد البشر ، وأن قيمة الأدب هى فى ما يسديه إلى الحياة وإلى الناس من خير ، أو فى ما يمكن أن ينتجه فى الحياة من خير للأحياء . فالأديب – كما يقول نعمه قازان – هو « كل من يدلنى على الطريق ، ويسير أمامى » . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إن الأدب المهجرى هو أدب رسالة ، وإن أدباء المهجر هم أدباء رسالة ، أو رسل أدباء . ورسالة المهجر الأدبية ذات ثلاثة فروع : فهى أولاً رسالة روحية واجتماعية إلى الحياة عامة ؛ وهى ثانياً رسالة أدبية إلى اللغة العربية ، وهى ثالثاً رسالة قومية إلى الشرق العربى . وفى الكلمات التالية سنرى كيف أدّى المهجريون هذه الرسالات الثلاث على أكمل وجه .

٢ – رسالة الأدب المهجرى الإنسانية العامة

ولئن كنت أقول « أدب المهجر » ، وأدباء المهجر ، فإننى أشعر بأن فى قولى هذا تعميماً وإطلاقاً ، وأن فى التعميم – غالباً – شيئاً من المغالاة . لذلك لابد لى من التخصيص ؛ فلم يكن كل ما عرفناه من أدب المهجر أدب رسالة ، ولا كل من عرفنا من أدباء المهجر أدباء رسالة . وإنما الذين يتميزون منهم بهذه الصفة

وتتسم بها آدابهم ، هم فئة كريمة من أدباء المهجر ، وفى مقدمتهم أصحاب « الرابطة القلمية » ؛ تلك الرابطة المباركة التى صنعت العجائب فى النهوض بمستوى الأدب العربى الحديث . وأصحاب هذه الفئة المباركة يتفاوتون فى فهمهم لرسالة الأدب ، وينهجون فى تأديتها سبلاً تتباين أحياناً ، ولكنها تظل مع ذلك متقاربة كل التقارب ، لأنها تصدر عن إحساس واحد للحياة الشاملة الواحدة .

فجبران ، ونعيمه ، وأبو ماضى ، ونسيب عريضة ، مثلا ، اتخذوا من الأدب « رسالة إنسانية » مثالية ، تتعالى على سائر الفروق والنزعات الإقليمية والطائفية والقومية والدينية ، فى حين اتخذ الريحانى والقروى وفرحات وصيدح وطعمه وقنصل وغيرهم من الأدب « رسالة قومية » ، كما سنرى ذلك بوضوح فى حديثنا على « رسالة الأدب المهجرى إلى الشرق العربى » . ولم تخل آدابهم من الأفكار الإنسانية العالية ؛ لأن رسالتهم القومية لم تكن من الضيق بحيث تنسيهم أن الوطن إنما هو جزء من الوجود الشامل ، وأن سعادته إنما تقوم بسعادة سائر الأجزاء الأخرى . وهذه « قومية مثالية » لا تقل نبلاً وسموًّا عن « الإنسانية المثالية » ؛ فهى جدول رقراق صاف ينبع منها ويؤدى إليها .

وهذا المعنى قد عبر عنه الريحانى بقوله : « لا تنسوا وطنكم فى حبكم الإنسانى ، ولا تنسوا الإنسانية فى نزعتكم الوطنية » . وعبر عنه كذلك الشاعر القروى فى ديوانه « الأعاصير » بقوله يخاطب فتاة إنكليزية اسمها « مود » أحبته فلم يبادلها الحب غيرة منه على قوميته ، وحفاظاً على كرامته :

لعمرُك يا « مـــود » لولا ذووكِ ... لما فرق الحبُّ بين العبـــادْ
ولا أكرهوا شاعـــراً أن يقـــو ... لَ هذى البلاد ، وتلك البلاد

ولكن الريحانى لم تكن كل رسالته الأدبية قومية فحسب ، وإنما كانت تشمل نواحى الإصلاح الاجتماعى والخلقى ، أو هى كانت رسالة للحياة العامة . ولعل القطعة التالية من « ريحانياته » تعبر عن ذلك ، وترينا أن الرجل كان عمليًّا واقعيًّا ، لا يقنعه الإيمان بالمثالية الروحية والعاطفية وحدها إن لم تكن ترمى إلى خلق جيل من الناس قوى فى روحه وفى أخلاقه . والريحانى هو القائل : « أنا

الشرق ، عندى فلسفات ، وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها طيارات » ؟ !

أما القطعة التى نشير إليها ، فقد أوردها الأستاذ ألبرت الريحانى فى كتابه « أمين الريحانى » ، وذكر أنها من الجزء السادس من « الريحانيات » الذى لم يطبع بعد . وفى هذه القطعة يقول أمين الريحانى تحت عنوان « المندوب الأسمى » : « إن كنت مكتئباً فلا تكن يائساً ، وإن كنت يائساً فلا تكن جامداً ، وإن تكن جامداً فاذكر أنك خلقت للخلود ؛ فهل تريد أن تخلد كالجلمود ؟ إن المذلة لفى الحياة الجامدة ، لا فى الموت . وإن الموت على رأس الجبل لنور يضىء . فإن متّ فى الغور ذليلاً ، عشت خالداً فى المذلة ، وإن عشت حرًّا كريماً ، ومتّ حرًّا كريماً ، كانت الحرية ركناً والكرامة نوراً لخلودك السعيد . . . إن الصحة والمال والبنين لأشياء تذكر إذا ما ذكر الجمال وحسن الحال ؛ ولكن أجمل منها الشجاعة وعزّة النفس ، وأجمل منها الحرية والمثل الأعلى فى الحياة . . . إن غضبة لكرامة لخير من اليسر والسلامة . وإن جنوناً فى سبيل الحق والحرية لخير من الرصانة والعبودية . وإن عزًّا فى الممات لخير من حياة شاكية باكية ، تتوسد اليأس ، وتلتحف الخنوع . . . »

وأما جبران الذى كانت تتسم كتاباته بالروح الإنسانية المثالية ، فإننا نجد معانى هذه الإنسانية فى كل كتاباته تقريباً ؛ ومنها قطعة بعنوان « وعظتنى نفسى » يقول فيها : « وعظتنى نفسى فعلمتنى وأثبتت لى أننى لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة . وقبل أن تعظنى نفسى كنت أحسب الناس رجلين : رجلاً ضعيفاً أرقّ له أو أزدرى به ، ورجلاً قويًّا أتبعه وأتمرد عليه . أما الآن فقد علمت أننى كوِّنت فرداً مما كوّن البشر منه جماعة : فعناصرى عناصرهم ، وطويتى طويتهم ، ومنازعى منازعهم ، ومحجتى محجتهم . فإن أذنبوا فأنا المذنب ، وإن أحسنوا عملاً ، فاخرت بعملهم ، وإن نهضوا نهضت وإياهم ، وإن تقاعدوا تقاعدت معهم » .

وكذلك نجدها فى القطعة التالية بعنوان « صوت الشاعر » ؛ وهى نفحة إنسانية من النفحات التى تهبّ من القلوب الكبيرة ، لتوسع آفاق عاطفتنا ، وتبسط حدود أدبنا ، فتربطنا بالإنسانية كلها . ففيها يقول نابغتنا الخالد جبران :

« أحنّ إلى بلادى لجمالها ، وأحبّ سكان بلادى لتعاستهم ؛ ولكن إذا ما هبّ قومى مدفوعين بما يدعونه وطنية ، وزحفوا على وطن قريب وسلبوا أمواله ، وقتلوا رجاله ، ويتموا أطفاله ، ورملوا نساءه ، وسقوا أرضه دماء بنيه ، وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانه ، كرهت إذ ذاك بلادى وسكان بلادى .

« أتشبب بذكر مسقط رأسى ، وأشتاق إلى بيت ربيت فيه ؛ ولكن إذا مرّ عابر طريق وطلب مأوى فى ذلك البيت وقوتاً من سكانه ، وَمُنع مطروداً ، استبدلت تشبيبى بالرثاء وشوقى بالسلوّ ، وقلت بذاتى : إن البيت الذى يضنّ بالخبز على محتاجه ، وبالفراش على طالبه ، لهو أحق البيوت بالخراب .

« أحب مسقط رأسى ببعض محبتى لبلادى ، وأحبّ بلادى بقسم من محبتى لأرض وطنى ، وأحب الأرض بكليتى لأنها مرتع الإنسانية ، روح الألوهية على الأرض » .

وليس من السهل فى الواقع أن نتخذ من القطعة القصيرة أو من القطعتين دليلاً على المجموعة الكبيرة من المؤلفات التى تشترك فى الخصائص الأصلية الكبرى للرسالة الأدبية الواسعة بمعناها الروحى والاجتماعى معاً ؛ فالذى يقرأ مؤلفات جبران كلها – أقول كلها ولا أستثنى ، على الرغم من أن مفهوم الرسالة الأدبية ، وطريقة تأديتها يتنوعان أحياناً فيها ، أو هما على الأصح يتطوران وينصقلان مع الزمن – يجد أنها جميعاً تستهدف تأدية رسالة الأديب إلى الحياة وإلى الأحياء على الوجه الأكمل الذى يراه الأديب نفسه .

وفى هذه الصفة يشترك معه نعيمه فى سائر مؤلفاته أيضاً . ومن أقوال نعيمه التى تدل على عمق شعوره الإنسانى قوله فى كتابه « المراحل » تحت عنوان « المزابل » : « يمر الناس بقصر من القصور ، فيهتفون : ما أجمل وما أبهى ! يحيطون صاحب القصر بالإجلال ، فيطأطئون أمامه الرؤوس ، ويعفرون الوجوه ، ويحنون الركب . أما الأيدى التى اقتلعت الصخر من صدر الأرض ونحتته حجارة . . . الأيدى التى تبنى فيسكن غيرها ما تبنيه ، وتنسج فيلبس غيرها ما تنسجه ، وتزرع وتحصد فيأكل غيرها ما تحصده . . . تلك الأيدى – وما أكثرها – مزابل بشرية يشمخ عليها الذين يحيون بكدّها وجناها ، ويكفّون

عنها الأبصار . . . وهم أحوج إليها من سمكة إلى الماء . فيا للغرور ويا للعمى ! . ما أكثر المزابل البشرية ، وما أحقرها فى نظر البشرية ، وما أقدسها وأجلّها فى عين الحياة ! الناس يهربون من مزابلهم ، ومزابلهم سماد الحياة فيهم . . . فما أعماهم ! يكرمون النبتة ، ويرذلون التربة ! » .

وكما تتنوع طرق الحياة ووسائلها وأهدافها ، كذلك لابد أن تتنوع رسالة الأدب إليها . وكذلك تنوعت رسالة الأدب المهجرى إلى الحياة العامة ، فكان من أبرز مزايا أبى ماضى الأدبية ، أنه صرف قسماً كبيراً من أدبه إلى تحبيب الحياة إلى الأحياء ، والدعوة إلى التمتع بما فى الحياة من مباهج ، لأن الحياة لا تستحق منا أن نستقبلها بالكآبة والعبوس ، وهى أقصر من أن ننفقها فى التجهم والهم . . من ذلك قوله :

قلتُ : ابتسمْ ما دامَ بينك والرَّدى شبْرٌ فإنك بعــدُ لن تتبسـما

وقد تكررت هذه الدعوة فى عدد كبير من قصائد أبى ماضى بصور مختلفة فى شكلها متفقة فى معناها . . فى قصيدة « المساء » يقول :

فاصغى إلى همْس الجداول ، جاريات فى السفوحْ
واستنشقى الأزهارَ فى الجنات ما دامت تفــوحْ
وتمتعى بالشهب فى الأفلاك ما دامتْ تلــوحْ
من قبل أن يأتى زمانٌ كالضّباب أو الدّخـانْ
لا تبصرينَ به الغديرَ ، ولا يلذ لك الخَــريرْ

وفى قصيدته « فلسفة الحياة » نسمعه يردد هذه المعانى بصورة أخرى ، فيقول :

كن مع الفجر نسمة توسع الأز هـار شمًّا وتـارةً تقبيــلا
لا سموماً مع السواقى اللــواتى تملأ الأرضَ فى الظلام عويلا

أما نسيب عريضة فإنه فى قصيدته « يا أخى ، يا أخى ! » يعلمنا الثقة بالنفس ، والفرح بالحياة ، والتعاون . فيهتف بنا بإخلاص وحرارة قائلاً :

فلنسرْ فى الظلام ، فى القفر ، فى الوحـ شة ، فى الويل ، فى طريق المجاهدْ
فلنسر أعزلين إلا مـــن الحـــقّ م سلاحاً ، والفكر حـادٍ وقائــدْ

وإذا اشتدت الذّئاب عـــــواءً فلنقابلْ عواءهـــا بالنشائدْ
يا أخى ! يا رفيقَ عزمى وضعفى ! سرْ نكابدْ ، إنّ الشجاعَ المكابـدْ
فإذا مـــا عييتُ تسند ضعـــفى وأنـــا بعد ذا لضعفك سانـدْ
سرْ تقـدم لكى نخطّ طريقـــاً لأبـاة الهـــوان عند الشدائـدْ

وتتجلى لنا نزعته الإنسانية التى تفيض عن نفس كبيرة تعلّم الحب والإخاء والصدق فى قصيدته « ادنُ منى » التى يصور فيها رسالة الأخوة الإنسانية تصويراً مؤثراً فيقول :

إن هـذى الحياةَ أقصر مـــن أنْ تشغل المرءَ برهـــةً بعـــلاله
فعلامَ الزّحام ، والرّكض ، والحقـ ـد ؟ علامَ الخصامُ ؟ فيم الجهاله ؟
فلنسر صاحبَيْن فى مهمـــه العيـ ـش فنطـوى وهـاده وتلالـــه
يا ابن ودى ! يا صاحبى ! يا صديقى ! ليس حبى تطفلاً أو ثقـــاله
فأجبنى « بيا أخى ! » يا صـــديقى وأعد ، إنهـا ألـذّ مقالـــه
وإذا شئتَ أن تسير وحيـــــداً وإذا ما اعترتْكَ منى ملالـــه
فامْضِ ، لكنما ستسمع صـــوتى صارخاً : « يا أخى ! » يؤدى الرساله
وسيأتيك أين كنتَ صـــدى حبّى فتـــدرى جمالـــه وجلاله

وقريب من هذه الروح الإنسانية الصادقة الحارّة ، ما نجده فى قصيدة « سر معى » لندرة حداد ، التى جعلها مطلعاً لديوانه « أوراق الخريف » .

٣ — رسالته إلى اللغة العربية

برزت مدرسة المهجر الأدبية إلى الوجود ، فى زمن كان كل ما فيه فى الشرق تقليداً ومسخاً ؛ والأدب ، بنوع خاص ، لا يقل عن كل شىء آخر تقليداً ومحاكاة : فهو ألفاظ وتراكيب تعتمد قبل كل شىء على القاموس ، وعلى قواعد البلاغة والعروض ، لا على العاطفة والفكرة والشعور . حتى لقد عَرف عصر النهضة ، أكبر مجموعة من القواميس الضخمة ، لبطرس البستانى ، وعبد الله

البستانى ، والشرتونى ، والأب المعلوف ، والكرملى ، وغيرهم . كما عرف أيضاً افتتان الكتاب بتقليد الأساليب القديمة تقليداً مملاً ، كما فعل ناصيف اليازجى فى « مجمع البحرين » ، والمويلحى فى « حديث عيسى بن هشام » وإبراهيم اليازجى فى « نجعة الرائد » ، وغيرهم كثير .

أما الشعراء فقد كانوا يتنافسون فى تقليد أساليب الشعراء السابقين ، بحيث لا يمكن لمن يطالع شعرهم أن يقع فيه على شخصية متميزة بخصائص ذاتية أصيلة ، بل يستطيع بكل سهولة أن ينسب شعرهم إلى بعض شعراء عصر الانحطاط ، أو الأعصر التى سبقته . كذلك كان الأدب العربى حتى ظهور المدرسة المهجرية ، أو على الأصح حتى ظهور جبران على رأس المدرسة المهجرية ، التى قلبت الأوضاع الأدبية قلباً جديداً .

فى هذا العصر ، الذى كان فى الغالب امتداداً لعصر الانحطاط ، وإن يكن فى الظاهر بدء نهضة أدبية جديدة ، اجتمعت فى المهاجر الأميركية نخبة من الشبان المتوثبين المستنيرين ، طوّحت بهم إلى هناك أسباب المعاش ، أو ظروف سواها ، وبين جوانح كل منهم رصيد كبير من المواهب الكبيرة التى تتحين الفرص للبروز إلى الميدان مزودة بكل صفات الخلق والإبداع . وكان أسبقهم إلى الظهور من مهجره البعيد ، جبران خليل جبران ، وأمين الريحانى . ولم تلبث أن انضمت إلى قلميهما الجريئين الموهوبين أقلام أخرى جريئة موهوبة لزمرة كريمة من الشبان الذين كانوا جميعهم يشعرون بما فى النهضة الجديدة فى الشرق من عوامل الضعف والانحطاط ، ويرون أنه قد آن الأوان ليترفعوا بالأدب عن التقليد المبتذل إلى حيث يمكنه أن يسهم فى الإنتاج الأدبى الإنسانى ، ويسلكوا به فى سبل شريفة حرّة ، تحفظ له جلاله وسموّه ، ولأصحابه كرامة نفوسهم ، وحرية ضمائرهم وأقلامهم . وهكذا وحّدت بينهم الحوافز ، فإذا بهم ينصرفون بهمة وبإخلاص وغيرة لتأدية رسالتهم الأدبية إلى اللغة العربية على الشكل الأكمل .

ولعل أقرب السبل إلى تعريف الطريقة التى أدّى بها أدباء المهجر رسالة الأدب إلى اللغة العربية هى فى مقال لجبران عنوانه : « مستقبل اللغة العربية » ، كتبه رداً على سؤال وجهته مجلة « الهلال » إليه وإلى طائفة من مشاهير الكتاب

العرب . وفيه يرى جبران « أن اللغة مظهر من مظاهر قوة الابتكار فى مجموع الأمة ، فإذا هجعت قوة الابتكار ، توقفت اللغة عن مسيرها » . ويقول : « إن مستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن – أو غير الكائن – فى مجموع الأمم التى تتكلم اللغة العربية » ، ثم يرى أن خير الوسائل بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة وإنعاشها هى فى قلب الشاعر ، وعلى شفتيه وبين أصابعه . فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر ، وهو السلك الذى ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث . . . وهو أبو اللغة وأمها . تسير حيثما يسير ، وتربض حيثما يربض . . . وأما المقلد فهو ناسج كفنها ، وحفّار قبرها » .

وإلى مثل هذا المعنى رمى ميخائيل نعيمه فى مقدمته « لمجموعة الرابطة القلمية » إذ قال : « إن الرابطة القلمية ما كانت لتقدّم هذه المجموعة إلى قراء العربية لولا اعتقادها بأنها قد اتخذت من الأدب رسولاً ، لا معرضاً للأزياء اللغوية والبهرجة العروضية » .

وليس من شك فى أن نعيمه هو خير من يرينا رأى المهجريين فى اللغة ، وفى أحسن الطرق إلى إنعاشها ؛ ولذلك نقف عنده قليلاً لنتمثل بأقواله ، لأنه قد تفرّغ أكثر من سائر زملائه لمعالجة موضوع الأدب واللغة ، فكان من ذلك كتابه الشهير « الغربال » الذى لا يزال نموذجاً صالحاً ، يردد أفكاره ومقاييسه وأحكامه كل مشتغل بالنقد الأدبى الحديث عند العرب .

من أقوال نعيمه التى لابد من ذكرها ههنا ، قطعة من « مذكرات الأرقش » ؛ وهى قصة فى مذكرات كانت منشورة فى « مجموعة الرابطة » ثم توسع فيها المؤلف فنشرها فى كتاب مستقل . وفيها يقول نعيمه : « إن القصد من كل لغة هو البيان : الإفصاح عن فكر ، أو حالة روحية أو جسدية . والقصد من كل قاعدة لغوية هو رفع الالتباس ، والدقة فى التعبير . فكل قاعدة لا ترفع التباساً ، ولا تساعد على دقة التعبير هى سلسلة من حديد . . . الناس ينسون أن اللغة هبة أعطيت لهم من الله ، وأنها كبقية الهبات الإلهية قد أعطيت لهم لا لتدفن ، لا لتقيد بما لا يلزم من القواعد والاصطلاحات فتبقى هى هى من جيل إلى جيل ، بل لتنمو وتتسع وتزداد جمالاً بازديادها بساطة » .

ثم يعالج نعيمه الموضوع مرة أخرى فى « غربال » فيقول : « لا قيمة للرمز فى ذاته ، إنما قيمته مكتسبة بما يرمز إليه . لذلك فلا قيمة للغة فى نفسها ، بل قيمتها فيما ترمز إليه من فكر وعاطفة . . . فجميل بنا أن نصرف همنا إلى تهذيبها وتنسيقها لنكسبها دقة ورقة ؛ إنما قبيح بنا أن ننسى أو نتناسى كونها رمزاً إلى ما هو أكبر وأجلّ منها بمراحل ؛ وأقبح من ذلك أن نحسبها وافية كاملة » .

وأيضاً : « إن القصد من الأدب هو الإفصاح عن عوامل الحياة كما تنتابنا من أفكار وعواطف . واللغة ليست سوى وسيلة من وسائل كثيرة اهتدت إليها البشرية للإفصاح عن أفكارها وعواطفها » .

ولم يكن أمين الريحانى أقل من زملائه اهتماماً بإنعاش اللغة العربية ، وكان يرى رأيهم فى أن الوسيلة الوحيدة لتغذية اللغة إنما هى بتلقيحها بالمعانى الكبيرة والأفكار الواسعة الباقية ، لا الاهتمام بألفاظها وقواعدها وحدها . ولذلك نراه فى مقال له بعنوان « التجديد المزيف » ينحى على دعاة التجديد فى مصر بالملامة والتأنيب ، لأنهم وقفوا فى تجديدهم عند حدود تغيير بعض الألفاظ ، ولم يعمدوا إلى العناية بالأفكار والمعانى والعواطف ، فيقول :

« والذى يفجعنى أكثر من كل فجيعة أدبية هو أنهم يحصرون نظرهم فى ظاهر اللغة : فى هيكلها ، فى عظامها ، ويظنون أن الميثاق القومى ، والسيادة الوطنية ، والعز ، والمجد ، والصولة ، والاقتدار ، تتوقف كلها على شىء من « حتى » ؛ فالفضل فى كينونتنا القومية ، هو للفظة جديدة يكتشفونها ، أو لتعبير عربى مضرى يعودون إليه . والسبب فى عدميتنا القومية هو غلطة نحوية أو صرفية أغلطها أنا أو يغلطها من هم أكثر منى علماً فى اللغة وآدابها . أما روح اللغة ، وطريقة الفكر فيها ، وأسلوب الكاتب الذى هو صورة لشخصيته ، والحرية الذوقية فى اختيار الأماكن بين الكلمات والسطور لهمساته وصيحاته ، ودمعاته وضحكاته ، وغمزاته ولمزاته ، والاختراع فى معالجة المواضيع القديمة ليعطيها شيئاً من الجديد . . . كل ذلك هو عندهم فى الدرجة الثانية أو الثالثة من الأهمية ، إذا قيس بشىء من « حتى » ! »

وكذلك نسمع قوله فى الجزء الثالث من « الريحانيات » تحت عنوان « روح

اللغة » : « إن للغة جسماً لا ينمو إلا بالغذاء الجديد ، وإن لها روحاً لا يعلو أدب عليها ، ولا يدوم أدب دونها . ولكن الأجسام عرضة للأسقام ، وآراء الناس فى الأرواح لا تخلو من الأوهام . فاللغة إذن تحتاج إلى رجل الدين حيناً ، ورجل الطب أحياناً ؛ أما إمامها فهو شاعرها ، وأما طبيبها فهو أديبها » .

ثم يضيف قائلاً : من الخطأ أن يُظن أن كل ما جاء به عرب الجزيرة إنما هو منتهى الفصاحة والبلاغة ، وأن استعاراتهم كلها جميلة فى كل مكان وزمان . ومن الوهم أن نتصور فى الماضى رب العصمة والكمال ؛ كما أنه من الوهم أن نحصر نبوغ زماننا فى إحسان لغة مضر وقحطان ، أو فى الخروج عليها . . . إن رقى اللغة فى نموها الدائم ، والنمو فى الحياة ، والحياة فى ما نألف اليوم ونكتشف غداً ، والاكتشاف فى الفكر والنظر والإرادة ، والفكر والنظر والإرادة لا تدوم عاملة بغير الحكمة ، والحكمة أن نخبر المألوف فنتجاوزه إلى سواه » .

هذه المعانى المتقدمة كلها تلخص لنا نظرة المهجريين – وأخص مهجرى الشمال – إلى اللغة العربية ، وشعورهم بالرسالة التى ينبغى عليهم تأديتها إليها . فاللغة أداة عاجزة إن لم تكن هناك أفكار جديدة ، ومعان جديدة ، وأخيلة جديدة تدأب على تأديتها . وكل لغة لا تستحق الحياة إلا بمقدار ما فيها من المعانى الحية الخالدة ، التى من دونها لا تكون القواميس والقواعد سوى عوامل للفناء الأكيد ، لأنها فاقدة لكل عناصر الحياة .

ولذلك لم يكتف المهجريون بأن يرشدوا ويوجهوا ويعلّموا ، بل انصرفوا إلى الخلق والإبداع بنشاط جبار يتغذى من مواهب فياضة . فطبقوا بذلك العمل على القول أحسن تطبيق ؛ فرأينا فى نثرهم وشعرهم كنوزاً من الحياة الدافقة التى تهب كثيراً وتبقى على فيضها ، وروحاً لم يألفها الأدب العربى ، لأنها من صميم الحياة والنفس البشرية ، ولأنها تعبير صحيح صادق عن منازع الحياة ، ومرامى الفكر الإنسانى ، يستهدف الحقيقة والجمال والحرية ؛ ووسيلتهم فى هذا هى البساطة فى الأداء ، لأن فى البساطة جمالاً لا يعرفه التقعر والغموض والتعقيد .

بهذه الروح الجديدة الجريئة ، وهذا اللقاح الجديد من المعانى والأفكار

التى خلقها المهجريون فى الأدب العربى ، انتعشت اللغة العربية ، وأصبحنا نشعر باعتزاز كبير إذ نجد لغتنا قادرة كل القدرة على الإسهام فى تراث الإنسانية الأدبى الخالد .

٤ – رسالته إلى الشرق العربى

لعلّ خلاصة معنى « الرسالة الأدبية » ، الاهتمام بالتوجيه الصحيح إلى خير السبل المؤدية إلى سعادة الحياة . فقلم الأديب هو الفأس التى تحطم وعر الطريق لئلا تعثر به أقدام أبناء الحياة ، والمشعل الذى ينير لهم هذه الطريق ليهتدوا إلى السعادة الحقة ، وليبلغوا إلى راحة القلب ، وطمأنينة الروح ، وسلامة الضمير .

ولقد كان الأدب المهجرى ، كما رأينا سابقاً ، أدب رسالة حقة ، تتناول نواحى الحياة المختلفة : الروحية منها والاجتماعية ، والإنسانية الشاملة منها والقومية المحدودة . والآن قبل أن نمضى فى بيان مدى تأديته لرسالته القومية لابد لنا من أن نتساءل : هل يجب أن تكون رسالة الأدب إلى الأمة – كل أمة – رسالة قومية صرفة ، مقيدة بحدود العاطفة والعصبية ، أم رسالة إنسانية مطلقة واسعة الآفاق ، مترامية المنازع ؟

يرى كثيرون أن هذه الأخيرة هى الرسالة الصحيحة التى يجب أن يؤديها الأدب إلى كل أمة – والأمة العربية ليست بدعاً بين الأمم – . ولكن غيرهم – وهم الأكثرون – يرون أن الأمة العربية فى حاضرها هى فى أشد الحاجة إلى أدب قومى صرف ، يعلمها كيف تقف على أقدامها قوية كريمة ، لتتبوأ مكانها تحت الشمس إلى جانب الأمم الحرة القوية ، ولو كلفها ذلك أن تلغ فى الدماء ، وتخوض فيها أقدامها طويلاً . أما نحن فإننا نعتقد بأن الشرق العربى فى حاجة إلى أدب قومى يقيله من عثاره ، ويقوده إلى الحياة الحرة ، وهو إلى جانب ذلك فى حاجة إلى أدب إنسانى ، يجعله يشعر شعوراً عميقاً بالصلة التى تربطه بكل

بنى الحياة وتربطهم به ، فتؤلف منهم جميعاً جوقة ترتل نشيد الحياة الواحدة الشاملة ، التى لا تتفرق ولا تتنابذ .

وسنقصر الآن حديثنا على رسالة الأدب المهجرى القومية . ونحن حين نتحدث عن هذه الناحية وحدها ، لابد لنا من الوقوف طويلاً عند أربعة أدباء كبار من أبرز أدباء المهجر ، هم أمين الريحانى ، والشاعر القروى رشيد سليم الخورى ، والشاعر إلياس فرحات ، والشاعر إلياس طعمه ، فالأدب القومى أبرز وأكثر ما نجده عندهم ، وهو عماد أدبهم وسر قوّته .

أما الريحانى فقد جعل قلمه وسيلة لتهذيب قومه ، وفتح عيونهم على ما كانوا فيه من مذلة وعبودية ، وعلى الطرق الممكن اتباعها لنهج سبيل الحرية الصحيحة ؛ فأراهم أن ما هم عليه من تفرقة متعددة الأسباب والنواحى هى السبب الأهم فى ما عانوه من الذل .

فالطائفية ، والحزبية ، والمذهبية ، كلها أمراض تنخر فى جسم العروبة والوطن العربى ، وتساعد على إضعافه وإذلاله ؛ والسبيل الوحيد إلى نهوضه هو فى إزالة كل هذه الفروق ، والاتحاد الصحيح فى ظل لواء عربى واحد لا يميّز ديناً ولا طائفة ولا حزباً ولا جنساً فى وطنيته . وبغير هذا السبيل لا يمكن للشرق أن ينضو عنه الهوان .

وفى ذلك يقول الريحانى فى كتابه « التطرف والإصلاح » : « إخوانى أبناء وطنى ! إن أول ما يلزمنا فى هذه البلاد ... هو هذا الشعور الوطنى الخالص من شوائب المذهبيات والطائفيات كلها ، الشعور الصافى السليم ، الخالص للوطن ... علينا أن نرفع فى شئون الحياة المدنية الوطن على الدين . . . بل علينا أن نفكك الطوائف كلها لنستطيع أن نؤلف طائفة الوطن الكبرى . أجل علينا أن نسعى فى تأليف وطنية عالية شاملة ، ركنها الأول الوحدة القومية ، وأن نعزز هذه الوحدة بالأعمال لا بالأقوال . وعلينا أن نغرس هذه الفكرة فى البيت وفى المدرسة ، وأن نؤسس لها الجمعيات من النساء والرجال لتبثها فى الأمة » .

والريحانى فى وطنيته رجل عملى واقعى ، لذلك نسمعه يردّ فى كتابه « أنتم الشعراء » على دعاة « الفن للفن » ، لا « الفن لخدمة الحياة والبشر » بكلام يعطينا

أوضح صورة عن نوع إدراكه لرسالة الأديب ، فيقول : « لقد أنكرتم علينا القول : إن زينة الحياة القوة ؛ فقلتم وقد فاتكم ما شمل من كلامنا : إن فى الحياة غير القوة مما يستوجب الرعاية والإجلال : أى أن فيها للعبقريين من رقة الشعور وعذوبة الأرواح ما يتألف منه روعة الفن وطهارة الدموع ؛ وأمام تلك الرقة والعذوبة ، وعند قدمى الروعة والطهارة يجب أن نخرّ ساجدين . وأنا أقول لكم إن من ينشدون فنًّا لا وطن له يُمسون ولا فن ولا وطن لهم . القوة ، ثم القوة ، ثم القوة ! القوة العقلية العلمية ، والقوة الروحية اللاطائفية ، والقوة المادية الاقتصادية ! يوم نظفر بهذه القوى كلها نصير أمة حرة مستقلة ، عزيزة النفس ، عزيزة الجانب بدون الأجانب » .

وكما اتخذ الريحانى من قلمه وسيلة لتحرير قومه ، كذلك جعله أيضاً وسيلة لإطلاع الغرب على أحسن ما فى الأدب العربى من كنوز ، وما فى الشرق العربى من ذخائر . فقد ترجم إلى الإنكليزية لزوميات المعرى ، وألف فى تلك اللغة عدداً من الكتب التى تتحدث على العرب والعروبة والبلاد العربية ؛ فكان بذلك رسولاً حقًّا بين الشرق والغرب ؛ ينقل إلى الغرب خلاصة أدب الشرق وروحيته ، وإلى الشرق أحسن ما فى مدنية الغرب . وقد ظل يتنقل بين الشرق والغرب مبشراً برسالته الأدبية ، وبتعاليمه القومية التى تستهدف نهضة الشرق ومجده ، ووحدة العرب وعزهم . وقد طوّف فى أرجاء البلاد العربية ، ووضع فيها المؤلفات الكثيرة التى تخدم رسالته القومية ، وهى أشهر من أن تعرّف .

والذى يريد الاطلاع على توجيهات الريحانى الأدبية والاجتماعية والقومية لابد له من الاطلاع – عدا كتبه عن البلاد العربية وملوك العرب – على « الريحانيات » و« النكبات » و« التطرف والإصلاح » وغيرها ، حيث يرى أن الريحانى قد كان فى الرعيل الأول من دعاة القومية ، المبشرين برسالتها عن وعى صحيح وإيمان عميق . وقد كان قلمه البارع الحكيم يجول فى مختلف شئون الشرق العربى ، فيعالجها معالجة خبير مجرب ، ويبين وجه الرشاد والحكمة فى معالجتها . وهو فى هذه الناحية لا يجاريه أديب آخر من زملائه المهجريين .

أما الشاعر القروى فتتجلى نزعته القومية فى شعره بارزة ، بل أبرز من كل

ما طرقه فى شعره من مواضيع . وهو فى شعره القومى أكثر توفيقاً ، وأعمق تأثيراً ، وأجود شاعريةً منه فى غيره . وفى كل قطعة من حنينه وشعره الوطنى فلذة من قلب وطنى ثائر ، وشعلة من إيمان وطنى عميق ؛ مع خطابية مجلجلة فى عبارته الشعرية .

والذى يطالع شعره الوطنى يشعر بأن فى كل بيت منه جذوة متقدة تلذع قومه لذعاً ، لتدفعهم إلى نشدان الحق والحرية بكل وسيلة ممكنة . ومن ذا الذى يقرأ أبياته السبعة التى توّج بها غلاف ديوانه « الأعاصير » ، ولا يثور الدم فى عروقه وهو يقرأ :

إلهى ! ردّ ما لك من أياد ... على وطنى ، وردّ له الإيادا
خلعتَ على رُباهُ الحسْن فذّاً ... وألبست القطينَ به الحدادا
وما شرفُ الجبال بساكنيها ... وشُمّ إبائهم خُسِفت وهادا ؟
أهيب بهم فلا ألقى سميعاً ... كأنىَ المنادى والمنادَى
ألا ذوّقتهم ألمى فثاروا ؟ ... فيا ربّاه ! لست أنا البلادا !
شبول الأرز ! بات الحلم عجْزاً ... وبعض الصبر موتٌ إن تمادى
فكونوا النار تحرُق ، أو قذى فى ... عيون البُطْل إن كنتم رمادا

وأىّ عربى — من لبنان وغير لبنان — لا يحترق صدره بالثورة الملتهبة غضباً لكرامته فيهبّ ليغسل عار هوانه ، حينما يقرأ قوله :

أمُدوّنَ التاريخ ! مرحمةً ! ولا ... تذكر لهم لبنانَ فى صفحاتهِ
لا تَمْحُ رسم المجد من تاريخه ... يكفيه عيث بنيه فى آياتهِ
لا تخبر الأحفادَ أنّ جدودهُمْ ... لم يشهروا سيفاً بوجه عداتهِ

وفرحات فى المهجر الجنوبى صنو القروى ، ورفيق جهاده فى حقل الأدب القومى . وهما مارجان متقدان غيرة على العرب والعروبة والوطن العربى . فالعروبة دين كليهما قبل كل دين ، وحرية العرب ومنعتهم وقوتهم هى التى تملى عليهما أروع الأغانى . أما أعدى أعدائهما فهى الفئة التى تتعصب للأجانب على أمتها ، وتناصر القوى الأجنبية على وطنها . وفرحات هو القائل :

يقولونَ لى : صادق فلاناً فإنه ... أخو نجدة يرجى لساعة ضيق
فقلت لهم : هذا صحيحٌ وإنما ... عدوّ بلادى لن يكونَ صديقى

والقائل أيضاً :

فلو أوصى بكره العرْب دينٌ　　لكنت إذن إمام الملحدينا

وعاطفة فرحات القومية لا تعرف الحدود الهزيلة التى أقامها الأجنبى بين أقطار العروبة ليجعلها دويلات وممالك تتناحر وتتطاحن لأجل أغراضه ومصالحه . وهو مؤمن بقوة أمته وقدرتها على سحق كل طغيان أجنبى ، وفى ذلك يقول منددًا (بغورو) الفرنسى صاحب مجزرة ميسلون :

ويا غورو ! أتحسبُ أنّ شعباً　　طليقَ النفس يرضى بالقيودِ
هزئتم بالوعود ، ونحن قومٌ　　غداة الرّوع نهزأ بالوعيدِ
ستعلم أنّ ما انتُدبَت إليه　　جنودك ساحق عظم الجنودِ
فوزّع روح نابليون فيهم　　وسلّحْهم بأنياب الأسودِ
فإنّ الحق ينجدُ تابعيه　　بأجناد العواصف والرّعودِ

ولست أريد أن أجيء بنماذج أخرى من شعره الوطنى ، ولكنى أحيل القراء إلى كتابى المطول عن فرحات بعنوان « إلياس فرحات شاعر العروبة فى المهجر » المطبوع فى عمان سنة ١٩٥٦ ، ففيه التفصيل الوافى لهذا الموضوع[١] .

أما الشاعر إلياس طعمة فقد بلغ من احتدام الشعور القومى عنده أنه لم يجد فى نصرانيته ما يشبع شعوره العربى القومى ، فأعلن إسلامه ، واستبدل باسمه النصرانى اسم « أبى الفضل الوليد » ، وعُرفت بهذا الاسم دواوينه الشعرية المتعددة ، ومؤلفاته النثرية . وما كان فى حاجة إلى ذلك ، فالشعور القومى لا يحتاج إلى مثل هذا ، وقد نال القروى وفرحات مثل حظه من بعد الصيت فى شعرهما القومى ، وإن لم يكن أى منهما فى حاجة إلى تغيير دينه لهذا الغرض[٢] .

وفى ما يلى أبيات من شعره القومى الكثير الذى تضمه دواوينه المتعددة . قال فى قصيدة بعنوان : « زئير وزفير » يحن فيها إلى وطنه ، ويتألم لتحكم الأجانب

---

(١) وانظر كذلك كتاب (إلياس فرحات) لسمير قطامى .

(٢) راجت فى فترة ما أقوال عن أن القروى قد ترك النصرانية وآمن بالإسلام : ولكنه اضطرّ إلى نفى ذلك .

– الفرنسيين حينذاك – فيه ويستثير قومه على أولئك الأجانب لينالوا الحرية والاستقلال :

يا أمتى ضيعتِ كـــل فضيلـة ... وغـــدوتِ لا عِلمٌ ولا أعـلامُ
وإذا أضاعت أمةٌ أعـــلامهـــا ... وعلومها فسدت بهـــا الأحكامُ
وغدت تئنُّ من الغريب ذليـــلةً ... إنَ الأجانبَ كلهم ظُـــلاّمُ
هبّـوا بنى أمى وصيحوا صيحةً ... يصحو العراقُ لها وتصحو الشامُ
واللهِ لا عـدلٌ ولا حرّيـــــة ... حتى يجـرَّدَ بيننا الصّمصامُ
يا حبذا الحامون أرض جـــدودهمْ ... لولا القساورُ هانت الآجـامُ
ما حرّر الأقـــوام إلا ثـــورةٌ ... فيها تعانقت الظبى والهـــامُ

ويقول فى قصيدة أخرى عنوانها : « ذكرى الجمال والشباب » وهى من قصائد الحنين والوطنية :

أقسمتُ أن أقضى الحياةَ مجاهداً ... والحقُّ لى ولتابعىَّ شعـــارُ
حتى نفوزَ به ونرفـــــع رايـــة ... من حولهـــا يُستشهد الأنصـارُ
الموتُ فخرٌ فى الدفاع عن الحمى ... والعيش فى دار المـــذلة عارُ

وبعد فلئن وقفنا كل هذه الوقفة الطويلة عند الريحانى والقروى وفرحات وأبى الفضل الوليد ، فليس معنى هذا أن أقلام الآخرين قد جفت عليها النفثات الوطنية والقومية ؛ فللكثير من شعراء المهجر شعر قومى ، يتمثل فيه صدق الوطنية وعمقها ؛ وأود أن أشير منه إلى قصيدة لأمين مشرق بعنوان « آية الأجيال » ، وإلى الكثير من شعر أبى ماضى ، وجورج صيدح ، ومسعود سماحة ، وعقل الجر ، ونصر سمعان ، وشكر الله الجر ، وندرة حداد ، وإلياس قنصل ، وأخيه زكى قنصل ، ونسيب عريضة ، وجورج كعدى ، وفيليب لطف الله ، ونزيه سلامه ، وغيرهم . ولولا خشية الإطالة لأوردنا لكل منهم شيئاً من النماذج الشعرية الرائعة فى هذا الميدان .

ولابد لنا من أن نذكر جبران فى حديثنا على رسالة الأدب المهجرى إلى الشرق العربى ؛ فعلى الرغم من مثاليته وإنسانيته التى تتعالى على كل الحدود والفروق والعصبيات ، لم يستطع أن يتجرد من العاطفة الوطنية ، بل جرى فيها

قلمه مراراً – ولا سيما فى كتابه « العواصف » – ومن ذلك قوله تحت عنوان : « مات أهلى » : « لو ثار قومى على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين ، لقلت إن الموت فى سبيل الحرية لأشرف من الحياة فى ظلال الاستسلام ؛ ومن يعتنق الأبدية والسيف فى يده كان خالداً بخلود الحق » . ثم يردف قائلاً : « إن العاطفة التى تجعلك يا أخى السورى تعطى شيئاً من حياتك لمن يكاد أن يفقد حياته ، هى هى الأمر الوحيد الذى يجعلك حرياً بنور النهار وهدوء الليل » .

وجبران فى وطنياته حادّ اللهجة ، كثير التأنيب والتعنيف . وما ذلك إلا لشدة حبه لبلاده ، ورغبته الصادقة المتحمسة فى أن يراها تنفض الذل عنها ، كما ينفض العصفور قطرات المطر عن جناحيه ، لتستقبل صباح الحرية والمجد بحنجرة صادحة ، وجناح قوىّ . ومن غضباته النارية مقاله بعنوان « يا بنى أمى » يقول فيها : « ناديتكم فى سكينة الليل لأريكم جمال البدر وهيبة الكواكب ، فهببتم من مضاجعكم مذعورين ، وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين : أين العدوّ لنصرعه ؟ وعند الصباح ، وقد جاء العدو بخيله ورجله ، ناديتكم فلم تهبوا من رقادكم ، بل ظللتم تغالبون مواكب الأحلام . . أرواحكم تنتفض فى مقابض الكهان والمشعوذين ، وأجسادكم ترتجف بين أنياب الطغاة والسفاحين ، وبلادكم ترتعش تحت أقدام الأعداء والفاتحين ؛ فماذا ترجون من وقوفكم أمام وجه الشمس ؟ سيوفكم مغلفة بالصدأ ، ورماحكم مكسورة الحراب ، وتروسكم مغمورة بالتراب ؛ فلماذا تقفون فى ساحة الحرب والقتال ؟ ! . . أنا أكرهكم يا بنى أمى ، لأنكم تكرهون المجد والعظمة ! أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم ! » .

ومنه قوله تحت عنوان : « لكم لبنانكم ولى لبنانى » : « هل بينكم من يمثل العزم فى صخور لبنان ، أم النبل فى ارتفاعه ، أم العذوبة فى مائه ، أم العطر فى هوائه ؟ هل بينكم من يتجرأ أن يقول : إذا ما متّ تركت وطنى أفضل قليلاً مما وجدته عندما ولدت ؟ هل بينكم من يتجرأ أن يقول : لقد كانت حياتى قطرة من الدم فى عروق لبنان ، أو دمعة بين أجفانه ، أو ابتسامة على ثغره ؟ ! » . .

وأما ميخائيل نعيمه فليس ثمة من يجهل إيمانه بروحانية الشرق ، وبوجوب المحافظة عليها ، لأنها ، فى رأيه ، أفضل الوسائل لسعادة البشرية جمعاء ، ولأنها

هى الرسالة التى يحملها الشرق إلى العالم وإلى الحياة ، والتى عليه أن يؤديها فى الحاضر ، ويستمر على تأديتها فى المستقبل كما أدّاها فى الماضى بلسان أنبيائه ورسله . وهو فى هذا الرأى على نقيض تام من الريحانى القائل : « أنا الشرق عندى فلسفات وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها طيارات ؟ ! »

ونعيمه يردّ على قول الريحانى هذا فى كتابه « البيادر » تحت عنوان : « التوأمان : الشرق والغرب » فيقول : « فاعجبوا معى لهذا الشرق – وقد أهدى إلى العالم المحبة والقناعة ، والتضامن والتآخى – يقف اليوم على مفرق طريق البصيرة والبصر ، كسير القلب . . ويمينه الفارغة ممدودة نحو الغرب ، و فى يساره قائمة بأسفاره المقدسة ، وأسماء أنبيائه . ثم اسمعوه يستعطى بصوت متهدّج ، فيه الانسحاق ، وفيه المسكنة والاندحار . وماذا عساه يستعطى ؟ إنه ليستعطى طيارات ودبابات ومدمرات ، ومدافع ، وقنابل . وإنى لأسمعه يقول ومن يقايضنى قنبلة محرقة بآية منزلة ، وطيارة أو دبابة بسفر مقدس ؟ بل من يقايضنى مخترعاً واحداً بعشرة أنبياء ؟ ، ما هذا ، ما هذا ؟ أبصيرة تستجدى بصراً ؟ أشمس تستغيث بذبالة ؟ »

٥ – رسالته الاجتماعية

من الطبيعى أن يكون المجتمع البشرى حجر الزاوية فى كل عمل فنى ؛ فالإنسان ليس شيئاً منفصلاً عن مجتمعه ، ولكنه حجر فى مجموعة البناء الإنسانى ؛ وهو بصفته هذه يتفاعل حتماً مع كل من حوله : يتفاعل مع ذويه فى المنزل ، ومع رفاقه وجيرانه فى الحى ، ومع الناس فى القرية والمدينة ، ويتفاعل كذلك مع البيئة العامة فى وطنه كله ، كما يتفاعل مع أحداث العالم بأسره وتطوراته ومدنيته وحضارته .

إنه يتأثر بالنكبات الفردية والعامة ، وبالأحداث السياسية والاجتماعية فى وطنه . وكإنسان ، يتألم مع المتألمين ، ويفرح مع الفرحين ، يحس بسعادة

السعداء وبشقاء الأشقياء ؛ يشعر مع الأم بين أطفالها ، والأب فى سعيه وكدحه لتحصيل المعاش لأسرته .

وإذا كان هذا شأن الإنسان العادى فهو أحق بأن يكون شأن الأديب والفنان ، لأن الأديب لا عدّة له غير الإحساس المرهف ، والتعبير الجميل ، وهو من الإنسانية بمنزلة القائد الأمين ، والدليل الصادق ، والمرشد الحكيم . تلك هى رسالته الكبرى ، وذلك هو سبيله الأول .

ولقد تحدثنا فى ما تقدم على رسالة الأدب المهجرى الإنسانية ، ورسالته إلى اللغة العربية ، ورسالته الوطنية . وفى ما يلى نتحدث على رسالته الاجتماعية ؛ ونحن نعرف أنه حديث قد يطول ويطول إذا شئنا أن نستقصى أطرافه ، ونسترسل إليه الاسترسال اللازم ، ، ولكننا سنتجتزئ بالقليل ليكون دليلاً على ما فى أدب المهجر من الصور الاجتماعية الثمينة ، ومن الغيرة الاجتماعية المخلصة .

وأول ما أود الإشارة إليه هو أن أدباء المهجر يشتركون كلهم فى أن أدبهم يهدف إلى خلق مجتمع إنسانى أفضل ، وأكثر إنسانية وتآلفاً ومحبة . وإلى خلق مجتمع عربىّ أقوى وأكثر حرية ورقيًّا ؛ وإذا كانوا قد اختلفوا فى اتجاهاتهم ، فنظر فريق منهم إلى المجتمع الإنسانى كوحدة كبيرة لا تفريق فيها – كبعض جماعة الرابطة القلمية وآخرين غيرهم – ووقف الفريق الآخر عند حدود وطنهم العربى ، فإن هذا الاختلاف ليس فى الواقع سوى مظهر خارجى ، لا يجرّد الإنسان العربى من الاشتراك فى المجموعة الإنسانية الكبرى ، ولا يعزله عنها ، ولكنه يسلط عليه الأنوار ليدفع قافلة الإنسانية إلى الأخذ بيده ، وليدفعه هو إلى النهوض للسير مع القافلة .

ولئن كانت الوطنية وما يرافقها من حب للمواطنين وللوطن ، ومن نقمة على الظلم والظالمين ، والعبودية والمستعبدين ، والاستعمار والمستعمرين ؛ لئن كان كل ذلك من رسالة الأدب الاجتماعية ، فليس من شأننا الآن أن نقترب من هذه الناحية ، فقد تحدثنا عليها فى ما تقدم بما فيه الكفاية .

* * *

المعروف عن أبى ماضى أن شعره كان أغنى ما يكون بالتفاؤل ، وبالدعوة إلى

حب الحياة ، والاستهانة بما فيها من متاعب ومصاعب . وهو من هذه الناحية شاعر الابتسام والأمل . وقد دعا إلى ذلك فى عدد كبير من قصائده ، فى ديوانه الثانى – أول دواوينه المطبوعة فى المهجر – وفى « الجداول » و « الخمائل » و « تبر وتراب » ؛ ففى قصيدته « المساء » يقول :

إن التأمـــل فى الحيـــا ... ة يزيـــد آلامَ الحيـاهْ
فدعى السآمـــــة والأسى ... واسترجعى مرحَ الفتـــــاه
قد كان وجهُك فى الضحى ... مثل الضّحى متهلـــــلا
فيه البشاشةُ والبهـــــــاء ... ليكن كذلك فى المســـــاء

وفى قصيدته « ابسمى » يقول :

ابسمى كالورد فى فجْر الصبــا ... وابسمى كالورد إن جن المساءْ
وإذا ما كفَّـــن الثلج الثرى ... وإذا مـــا ستر الـغيمُ السماءْ
وتعرّى الروضُ مـــن أزهـــاره ... وتوارى النور فى كهف الشتاءْ
فاحلمى بالصّيف ثم ابتسمى ... تخلقى حـــــولك زهراً وشذاءْ

ويقول فى قصيدته « تعالى » :

يـريـــد الحبُّ أن نضحـ ... ـك فلنضحكْ مع الفجر
وأن نـركض ، فلنركض ... مع الجـــدول والنهـــرِ
وأن نهتـــــف ، فلنهتـــف ... مــع البلبـــــــل والقُمْـــرى
فمن يعـــلمُ بعْـــد اليـــو ... م مــا يحــدث أو يجرى ؟ !

وهكذا نرى أبا ماضى يسعى لينشر العطر والنور فى الحياة ، ويشيع الابتسام والأمل فى نفوس الناس ، ويملأ المجتمع بالسعادة والخير والرضى .

وقد عالج فى شعره كثيراً من عيوب المجتمع ونقائصه ، وحنا على الأشقياء من أبنائه ، ففى قصيدته « اليتيم » يقول :

إننى كلمـــــا تأملتُ طفْـــــلاً ... خلْتُ أنى أرى ملاكا سويـّاً
قل لمن يبصر الضبابَ كثيفاً ... إنّ تحت الضّباب فجراً نقيّا
اليتـــــيمُ الذى يلـــوحُ زريًّا ... ليس شيئاً ، لو تعلمون ، زريّا
إنه غـــرسة ستُطلـــع يـومـاً ... ثمـــراً طيباً وزهـــراً جنيّــا

ربما كان أودع الله فيــــه فيلسوفاً أو شاعراً أو نبيــّا
إن يك الموتُ قد مضى بأبيــه .ما مضى بالشعور فيـك وفيــّا
إن هذا الطفـْلَ الصّغيرَ ملاك كيف ترضون أن يكونَ شقيًا ؟

ويقول فى قصيدته « الفقير » :

قُلْ للغــنىّ المستعزّ بمالــه مهْلاً فقد أسرفتَ فى الخيلاءِ
جُبل الفقير أخوك من طين ومن ماء ، ومن طين خُلقتَ وماءِ
أتضنُّ بالدّينار فى إسعافــه وتجودُ بالآلاف فى الفحشاءِ ؟
انصرْ أخاك ، فإن فعلتَ كفيته ذلّ السؤال ومنّــة البُخَلاءِ

وأما قصيدته « الطين » فأكتفى بمجرد الإشارة إليها لشهرتها ؛ وهى من أروع الشعر الاجتماعى المملوء بالحدب على الضعفاء ، والنقمة على ظلم الأقوياء . ومثلها قصيدة « كلوا واشربوا أيها الأغنياء » التهكمية . وهناك الكثير غيرها من قصائد أبى ماضي ، وكذلك من مقالاته المتعددة فى جريدته « السمير » .

وأمين الريحانى كان أدبه كله اجتماعيًّا ، وكان كله يستهدف خلق المجتمع القوى الحر ، ونشر الإخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية . كذلك كان فى رحلاته ، وفى خطبه ومقالاته ؛ وفى ريحانياته ، وكتابه « التطرف والإصلاح » ، وكذلك فى قصصه ورواياته ، أدلة أكثر من أن يمكن إحصاؤها فى هذا المجال .

غير أننى أود أن أشير إلى شيء يسير جدًّا من غيرته الاجتماعية ؛ فعندما وقعت المجاعة الكبرى فى لبنان فى أثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٦ ، هبّ أمين الريحانى يعمل بكل قواه ليجمع المال من إخوانه المهاجرين لأبناء وطنه الجياع ، فكرّس قلمه لهذا العمل الإنسانى الكبير ، واتخذ من نفسه قدوة للآخرين ، فصام يومين وقدّم ثمن طعامه للجياع فى وطنه ، ودعا المهاجرين إلى الصيام يوما واحداً ، والتبرع بثمن قوت ذلك اليوم لأولئك المواطنين الجياع ؛ وألّف لجنة من رفاق الهجرة ليجمعوا التبرعات لهذا الغرض .

ويجد القارئ كل ذلك فى كتابه « الريحانيات » – الجزء الرابع ، من الطبعة الأولى عام ١٩٢٣ و١٩٢٤ – من الصفحة ٨٣ إلى ١٢٤ .

والذى يقرأ رحلاته المتعددة يجد فيها إلى جانب الوصف الواقعى للعالم العربى ،

الغيرة الشديدة على إصلاح المجتمع العربى ، والدعوة الجاهدة إلى الثورة الاجتماعية التى تقلب الأوضاع ، وترفع المجتمع من وهدة الشقاء والجهل والجوع والعبودية إلى مراقى السعادة والعلم والرخاء والحرية .

وإليك نموذجاً من أدبه الاجتماعى الداعى إلى الثورة الاجتماعية ، بعنوان « التمدن الحديث » من « الريحانيات – الجزء الأول » :

« بشر فلاسفة الجيل الثامن عشر بالإخاء والحرية والمساواة ، ونهض تلاميذهم السياسيون فطالبوا بهذه الحقـوق ، وسلّ الشعب سيفه فى أكثر ممالك أوربا تنفيذاً لمطالبه ، فحدث ما حدث من الثورات والفتن فى آخر الجيل الثامن عشر ونصف الجيل الآخر . وماذا كانت النتيجة ؟ هل تتوجت الحرية ؟ هل شملت المساواة الناس ؟ هل توارت اختلافات الأمم وتلاشت الضغائن وحزازات الصدور؟..

« تأمل هؤلاء العملة الفقراء الذين يطلبون من أصحاب المعامل زيادة أجورهم كى يستطيعوا القيام بمعاشهم ومعاش عيالهم ، فإنّ كل ذى عقل يفكر وقلب يشعر يرى صحة دعوى العملة واعتدال مطالبهم . . ولكن هل يصغى أصحاب الشركات لصوت الشعب ؟ . . .

« يقولون إن الحرية الشخصية مطلقة لكل فرد فى الحكومات الحرة المستقلة . وما جوابنا لهم إلا أن الجرائم الفظيعة التى تحدث بالعشرات كلّ يوم فى المدن الكبرى ليست إلا بعض نتائج تلك الحرية : فالتسمم والقتل والطلاق التى تزداد حوادثها يوماً فيوماً ، كلها من مظاهر التمدن الحديث الموهوم .

« أما الإخاء فكلمة لا معنى لها فى معجمات اللغة . . إن هذا التمدن الناشئ بين الكنائس والمكاتب والملاهى والمتاحف والقصور ، والمشيد على المال والتجارة والظلم والاستئثار ، لا يولد إلا الرذيلة والجهل . . وإذا زحف جيش الجهل على معاقل تمدننا الزاهر الباهى يجعل عاليها سافلها . . وقصارى القول أن الخطر على تمدننا الكاذب هو من الداخل لا من الخارج ؛ هو من أنفسنا لا من الأعاجم » .

وقد عالج الريحانى كثيراً من المشاكل الاجتماعية ، ومن ذلك قوله فى مقال « الفقر وبنوه » :

« ان الفقر لحليف الجهل ، وأليف القذارة ، ورسول الفوضى . ولكن ما هو

سبب الفقر ؟ هى مسألة أقدم من يعقوب بن إسحق بن إبرهيم الذى خدع حماه ليكثر غنمه فيجنى من ذلك مغنماً . نعم هى مسألة قديمة ، ولكنها تظل جديدة لأنها لا تحل ما دامت الأحكام فى أيدى ذوى المآرب والأغراض الذاتية . .

« إن خيرات الأرض تكفى سكانها إذا وزعت توزيعاً عادلاً على الجميع : فالقمح الذى يزرع فى الولايات المتحدة سنوياً يقوم بقوت سكان الأرض كافة . ولكن مع وجود هذا القدر الوافر من القمح لا يزال المتسولون والبائسون يطوفون أسواق المدن الكبرى ، وكثيراً ما يموتون جوعاً ؛ ولا يزال الملايين من الفقراء عاجزين عن ابتياع اللحوم كل يوم . .

« إذا كانت خيرات العالم غزيرة ألا يجب أن تسود القناعة والسعادة فى جميع البشر ؟ ألا يجب أن يكون الكل على مبلغ الكفاية ؟ متى يستريح الأفراد من التخمة ، ويأمن الجمهور من الجوع ؟ كم يموت من المتمولين بالانتفاخ ، وكم يموت من المساكين بالانقباض ؟ ! »

وإننى لأترك القارئ أن يعود إلى مؤلفات الريحانى ، ليرى كم كان هذا المفكر العربى العملاق حريصاً على رخاء المجتمع الإنسانى ، وعلى توفير السعادة والأمن والحرية له .

أما جبران فقد عالج الكثير من عيوب المجتمع ونقائصه فى كثير من مؤلفاته : فى المواكب ، والعواصف ، والأجنحة المتكسرة ، والأرواح المتمردة ، وعرائس المروج ، والبدائع والطرائف . غير أن كتابه « النبي » كان أوسع هذه المؤلفات التفاتاً إلى المجتمع الإنسانى عامة ؛ فقد عالج فيه كثيراً من القضايا الاجتماعية معالجة المفكر المصلح ، الراغب فى السعادة والخير للإنسانية . وقد تحدث فيه عـلى « المحبة والأبناء ، والعطاء ، والمأكل والمشرب ، والعمل ، والفرح والترح ، والبيوت ، والثياب ، والبيع والشراء ، والجرائم والعقوبات ، والشرائع ، والحرية ، والعقل ، والهوى ، والألم ، ومعرفة النفس ، والتعليم ، والصداقة ، والكلام ، والزمان . والخير والشر ، والصلاة ، واللذة ، والجمال ، والدين ، والموت » .

كل هذا تحدث عليه جبران حديث المفكر المؤمن ، والشاعر الفنان ، والإنسان المحبّ لإخوانه من بنى البشر ، ولكنه كان يهدف منه أن يجعل الخير

يبدأ من داخل الإنسان نفسه ليعمّ بعد ذلك مجتمعه الإنسانى كله .

ولقد سار ميخائيل نعيمه على درب جبران نفسه ، وعالج شئون المجتمع الإنسانى على طريقته . ونجد ذلك فى العديد من مؤلفاته : كالمراحل ، والأوثان ، وزاد المعاد ، والبيادر ، والنور والديجور ، وكذلك فى « مرداد » الذى وضعه على غرار نبىّ جبران ، وملأ صفحاته بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالتجرّد النفسى .

أما كتابه « الأوثان » فقد عالج فيه عدداً من الأمور التى يعبدها الناس ، وهى : المال – والقوة – والسلطان – والرأى العام – والقومية – والكلمة السوداء ، أى الكتب والصحف المطبوعة – والعلم ؛ وهو فى معالجته لها يدعوها بالأوثان ، أو الآلهة التى يخلقها الناس لأنفسهم ثم يعبدونها ويخضعون لأحكامها ، وهى أشياء تستعبد الإنسان لنفوذها وطغيانها ، وتحرمهُ راحه النفس ، وحرية الضمير إلى حد بعيد ، وتمنعه حرية العمل والتصرف .

وكذلك نقرأ فى شعر نسيب عريضة عدداً من القصائد التى تدلّ على انفعاله بأمور المجتمع ، على الرغم من إغراقه فى التأملات الروحية ؛ فقصيدته « النهاية » هى ثورة على الشعوب التى لا تسعى لحريتها ؛ و« نفس الشجاع » هى تحية للشبان المتطوعين فى حرب الحرية خلال الحرب العالمية الأولى ؛ ومثلها قصيدة « نخب الجنود » . وقصيدته « إلى فلسطين » هى تمجيد لنضال الشعب الفلسطينى ضد الانتداب والصهيونية ؛ و« ترنيمة السرير » هى أنه ملأى بالجراح على حالة لبنان ، إبان المجاعة الكبرى عام ١٩١٦ .

* * *

وفى المهجر الجنوبى نجد دواوين الشعر وصفحات الصحف تزخر بالمعالجات الاجتماعية ، إلى جانب ما تزخر به من الأدب الوجدانى والوطنى : فالشاعر زكى قنصل خصّص عدداً من قصائده لمختلف أرباب الحرف والصناعات : كالبنّاء ، والنجار والخياط ، وغيرهم . ومن ذلك قصيدته « البنّاء » التى يقول فيها :

يبنى القصور وكوخُه خربٌ ساءت حياةٌ كلها تعبُ
الشوكُ يزخرُ فى مسالكها والرّيحُ ما تنفكُّ تضطربُ
لا يزدهى فى ليله قبَسٌ إلاّ تولتْ طمْسه النوبُ

لكأنه فى الناس حاشيةٌ ... وكأنه فى الأهل مغتربُ
جلبابهُ رُقَعٌ تألفها ... غرضٌ وباعد بينها نسبُ
مشت السنين عليه فاختلطت ... أصباغه وتقارب السببُ
بالروح فى تموز وقْفَته ... يكويه من أنفاسه لهبُ
دامى الفؤاد يمضّه ألمٌ ... ذاوى الجفون يعضّه سغبُ
عرق الجهاد يزين جبْهَته ... تاجاً عَلَتْهُ هالةٌ عجَبُ
بالروح فى كانون نظرته ... يصطكّ من قرّ ويضطربُ
جمدتْ على المنقار راحته ... فكأنها من بعضه خشبُ
تلهو الرياح به ، فإن سكنتْ ... فتحت عليه ثقوبَها السحبُ
يا ربّ عفوك إن كَفَرتُ فما ... ترقى إلى ملكوتك الرّيبُ
أوَ ضَاق عَطفُك دون حاجته ... فحبسْتَ عنه بعضَ ما يجبُ ؟
أو ليس يجمعه بسيده ... نسب من الصّلصال أو حسب ؟
فعلامَ تشتاق الرّيال يدٌ ... ويدٌ تراكَمَ حولها الذهبُ ؟
وعلام يُغصَبُ حقُّ مجتهد ... ليفوز باللذات مغتصبُ ؟
يا غائصا بالطين ، لا نَصَبٌ ... يوهى عزيمته ولا وصبُ
ما أنت أوّل كادح عثرتْ ... آماله وكَبَا به الدأبُ

وللفلاح نصيبه الكبير فى شعر المهجر ، ومن ذلك قول شفيق معلوف فى ديوانه « لكل زهرة عبير » .

وفّى الحياةَ ديونها ... كرماً ، وما وفيتْ ديونُهْ
ومضى تشقّ الأرض قبـ ... ضته بعزم لا يخونُهْ
عرق الجهاد همى على ... عينيه فانطبقتْ جفونُهْ
هلاّ نظرت جبينه ... كم فيه لؤلؤة تزينُهْ
ضنَتْ عليه بالدّمو ... ع عيونُه فبكى جبينُهْ

وفى هذا الديوان عينه لشفيق معلوف نصيب للراعى ، وللورّاق ، وللبستانى ، ولساعى البريد . إليك من ذلك قوله فى ساعى البريد – وهو أجمل ما قيل فى هذا الموضوع :

ساعى البريد ، وما ينفكّ منطلقاً ... وكل بات عليه غير موصودِ
يسعى بأكداس أوراق مغلّفة ... تفوح منهنّ أطياب المواعيدِ
خلف النوافذ أجفانٌ مشُوَّقة ... إليه تخفقُ من وجد وتسهيدِ
بدا فهزّ عقودَ الغيد مقدمُه ... هزَّ النسيمِ لحبّات العناقيدِ
كم قبلة من فم العشاق يحملُها ... على يديه ويهديها إلى الغيدِ
يا ساعياً بابتسامات توزّعها ... على الشفاه بلا مَنٍّ وترديدِ
كم وجه أمّ عجوز إن برزتَ له ... لم تُبقِ من أثر فيه لتجعيدِ
تُلقى إليها كتاباً إن يُصِبْ يدها ... شدّته باليد بين النحر والجيدِ
كأنّ كل غلاف منك ملتحف ... بابْن إلى صدر تلك الأمّ مردودِ
وكم وكم رقعة كالحظ مشرقة ... وهبتها كلّ كابى الحظ منكودِ
يا واهباً كلّ بشرى حين جدت بها ... راحتْ تكذّب عنك الفقر بالجودِ
أَبَعْدَ بَذْلك فينا ما بذلتَ نرى ... عينيك فى مأتم والناسُ فى عيدِ ؟
لو تعلم الناسُ يوماً أنها سلختْ ... أيامها البيض من ليلاتك السودِ !

ويقول شفيق فى « البستانى » :

مررت به يُكبُّ على غراس ... لَوَيْنَ العنْقَ للعصْف الشديدِ
فيرفعهنّ فوق الأرض كيما ... ينجيهنّ من ذلّ السجودِ
بصرتُ به ينقّلُ راحتَيْه ... على الأغراس من عود لعُودِ
فينزع سلخةً من كلّ غصْن ... ويدفنها لتولدَ من جديدِ
يداهُ على التراب ومقلتاهُ ... معلّقتان بالأفق البعيدِ

ولأخيه رياض معلوف قصيدة فى « المصدور » يقول فيها :

هو يمشى والموتُ فى خطواته ... عاثر الحظ بانتظار مماتهْ
شاحباً بائساً حزيناً كئيباً ... واحتضار الصدور فى بسماتهْ
ويريدُ الكلامَ والداء يأبى ... ناثراً صدرَه على كلماتهْ
كلّ يوم يموتُ فيه قليلٌ ... من بقايا أيامه لوفاتهْ
رئةٌ كالقفير والنحلُ فيها ... مرَضٌ ناهشٌ بقايا حياتهْ
وفؤادٌ واهٍ يدقّ سريعاً ... ونعىَ النعاة فى دقاتهْ

و « للشاعر المدنى » قيصر سليم خورى ، قصيدة جميلة فى « الفلاح » يقول فيها :

يهنيكَ فلْسكَ يا فلاحُ تكسبـــهُ ... فى حلْبة الجد لا فى حمأة الكَذبِ
الشمسُ فوقكَ كالأتون مسعـــرة ... فى لذْعها لك إنهاض إلى الدَّأبِ
تطالعُ الوقت فيهـا وهْىَ سافـرَةٌ ... كأنها ساعةٌ صيغَتْ من الذَّهبِ
يكاد زرعُكَ ممـا بتَّ تنزفـهُ ... من ماء جهْدك يستغنى عن السحبِ
لله كفكَ والمحراثُ كَمْ لهمـــا ... دَيْنٌ على الناس لن يوفى مدى الحقبِ
لم يمرحـوا شبَعاً أو يشبعوا مَرَحاً ... لولا الذى بكَ من فقْر ومن نصَبِ
يا قاتلَ الجُوع كم أشبعتَ من حَكم ... منفِّذ فيك حُكْمَ الجوع والتعبِ
لو خافَ ربَّك مَن عقّوا لكنتَ لهُمْ ... للعَيْن كالجفْن أو للجَفْن كالهُدبِ

أما نصر سمعان فله شعر اجتماعى غير قليل ، ألقاه فى مناسبات اجتماعية ووطنية متعددة (١) ومن ذلك قصيدة له بعنوان « ملائك المنفى » قالها فى التفجع لأبناء المجاهدين ، ومنها :

يا رياحَ المنـــون كـــونى شفيقَه ... وتحاشَىْ هصْرَ الغصُون الوريقَـهْ
أنْشَبَ الجوع فى الفراخ نيوبـــاً ... ليت تلك النيوبَ كانت سحيقَهْ
يا لطفـل تسعى إلى مهْـده الهـا ... دى أفـاع من الجحيم طليقَـهْ
أجـزاءُ المـلائك الأبرياء الـ ... زَجُّ فى هـوّة الشقـاء العميقَهْ ؟ !
يا قفـاراً تغلغـلَ الدّمْعُ فيهـا ... وسقـاها القلْب الجريحُ رحيقَهْ
يوم أصبحت للمـلائك مَنْـفى ... صرت أسْمَى من القصور الأنيقَهْ
هزّك العطـفُ والحنـانُ عليهم ... فتمنيتُ لـو خُـلقت حديقَـهْ
كلّ طفلٍ على ثـراك طريـح ... كوكبٌ تـرقبُ الشآمُ بريقَـهْ
أين مَن يخبرُ النـدى عن ذبول الـ ... زَّهْـر فى جنـة الحياة الوريقَهْ
يجمع الموتُ كلَّ ما تجْمعُ الـدّ ... يـا ويبقى عطْفُ القلوب الرّقيقَهْ
ودمُ الطفْـل بالحنـان خليـق ... وحـرامٌ عـلى النَّدَى أن يريقَهْ

(١) انظر (ديوان نصر سمعان) الذى نشرته (دار المراحل) فى البرازيل بعد وفاة الشاعر عام ١٩٧٢.

وللمهجريين نظرات اجتماعية عامة نظمها الشعراء منهم فى أبيات قصار متفرقات فجاء بعضها بشكل مقطوعات قصيرة ، وبعضهـا بشكل رباعيات شعرية . ومن ذلك قول حسنى غراب فى « البخيل » :

يقـولُ لىَ البخيلُ وقد رآنى ... أجودُ ببعض ما ملكتْ يدايا :
ألم تحسبْ ليوم غد حساباً ... ويوم غد محوطٌ بالرّزايا ؟ !
فقلت : صدقتَ واسترعيتَ سمْعاً ... لوَ انكَ ناصحٌ بشرًا سوايا
أتنهـانى عن المعروف خوفاً ... على مـال تبـدّدهُ العَطايا
وحولى من ضَحايا البؤس ناس ... تذوبُ لفرْط شقوتهمْ حشايـا
أكنتَ تلجُّ فى عذلى ولومى ... لوانك بعض هاتيك الضّحايا ؟ !

وقد اشتهر فرحات برباعياته ، وأغلب هذه الرباعيات فى شئون اجتماعية مختلفة . ومن رباعياته قوله فى « العدالة » :

معنى العدالة روحٌ طار مبتعـداً ... واللفظُ جسمٌ طواه الناس فى الكتُب
يشكو الضّعيفُ القوىّ المستبدَّ وإنْ ... يَقُو استبدَّ ، وما فى الأمر من عجَبِ
فالخيرُ فى البعض بالتهذيب مكتسَبٌ ... والشرُّ فى الكلّ طبْعٌ غير مكتسبِ
لم يخلـق الله أنيـاباً محـدّدةً ... للمرء ، فاعتاضَ عنها أنْصُل القضُبِ

وقوله فى « الرقص » :

للغرب فى الشرق عاداتٌ مقدّمة ... كانت وما برحَتْ أولى بتأخيرِ
لا تتبعوها ، فكم من زهرة حسنتْ ... فى الناظرين وساءتْ فى المناخيرِ
يا أيها الناسُ إنْ كانتْ ضمائركم ... تأبى الخداعَ وما ترضى بتسخيرِ
قولوا لكلّ أب فى الشرق محترم : ... إنّ المراقصَ أبوابُ المـواخيرِ

وفى « الطمع » :

المرءُ شرٌّ سبـاع الـبرِّ قاطبـةً ... خبْثاً ، وشرٌّ تنانين البحار معـا
قولوا عن الذئب ماشئتم فسامِعُكمْ ... بمثل شرّ ذئاب الناس ما سمعـا
الذئبُ يتركُ شيئـاً مـن فريستـه ... للجائعينَ من الذّؤبان إن شبعَـا
والمرءُ وهْوَ يداوى البطْن من بشم ... يسعى ليسلبَ طاوى البطن ما جمعا

وفى « الخمول والقعود عن السعى » :

صلىّ الجهـولُ إلى البارى ليرزقَـهُ قوتاً ، ونامَ ، فعاش العمْرَ جَوْعانا
ولو سعَى فى سبيل القوت مجتهـداً لكـان من أمْـره غيرُ الذى كانا
ليس العـرائنُ للآسـاد رازقـة كبشـاً ، وقد يرزق التجوال قطعانا
والحظّ يخدمُ بعضَ الناس عن عَمَهٍ حينـاً ، ويخذلُ كل الناس أحيانا

وهكذا يمضى فرحات فى نظراته الاجتماعية بمثل هذه الرباعيات القصيرة الخفيفة الملأى بالحكمة والنظر الصائب .

وقد فعل إلياس قنصل مثل ذلك ، فنظم عدداً كبيراً من الرباعيات فى شئون الحياة والمجتمع المختلفة . وفى ما يلى بعض هذه الرباعيات :

١ – إن كان ضوء الحقّ نورك وحْده فجليلُ جهـدكَ حسرةٌ وهباءُ
كم من عباقـرة خَبا إصلاحهم لم يَخْبُ لولا أنهم ضعفاءُ
فاتركْ زمـانك لا تلمْهُ فإنما أخـلاقُنا وخلالُنـا الخرقاءُ
كفُّ القوى لصفعةٍ وتحيـةٍ أما الضّعيفُ فكفهُ استْعطاءُ !

* * *

٢ – كن قويًّا لتجعل الحقَّ فرضاً يتـولى بقسْطه الأحكامـا
ظالمٌ يفتحُ النواظـرَ خـيرٌ من رحـيم يُغيثُ من يتعامى
إنَّ حقَّ الضّعيف حقٌّ ضعيف عَصَرَ الداءُ لحْمَـهُ والعظاما
أسْخفُ الناس ناعمٌ بخمول يتمنَّـى من القوىّ احْـتراما

* * *

٣ – خلّوا التحسر والبـكاءَ وعالجُوا أمراضَ أنفسكم بلا إشفاقِ
فَشَلُ المقصّر إن عـزاهُ لغيره فشلٌ يلوّثهُ طـلاءُ نفـاقِ
إنا خسرنا « القدْس » وهْىَ وديعة فى عهدنا من سؤدد الخلاقِ
ما كانَ من وهَن السلاح ضياعها بل من شيوع الذلّ فى الأخلاقِ

* * *

وهكذا نرى أن الأدب المهجرى لم يبتعد عن النظر فى شؤون المجتمع الإنسانى ، والمجتمع العربى ؛ ولم يتهرّب من معالجة الواقع ، بل عمل أصحابه جهدهم ليسهموا فى خدمة الإنسان والإنسانية عن طريق محاربة الضعف والخمول والظلم الاجتماعى ، والتبشير بالخير والحرية والسعادة وسائر الفضائل الاجتماعية . ولم نورد ههنا إلا الشيء القليل ، ولكنه فى رأينا يفتح العيون على ما فى أدب المهجريين من الواقعية الاجتماعية ، ومن النظر الصائب والرأى السديد فى كل شأن من شئون الحياة والمجتمع .